تطور الخطاب الفكري في العراق خلال العهد الايلخاني (٦٥٦-٧٣٦هـ/ ١٢٥٨- ١٣٣٥م)

ا.م.د.سهاد خزعل نجيب

قسم التاريخ /كلية التربية

الجـامـعـة المستنصريـة

تطور الخطاب الفكري في العراق خلال العهد الايلخاني (٦٥٦-٧٣٦هـ/ ١٢٥٨-١٣٣٥م)

ا. م . د. سهاد خزعل نجيب

الملخص :

تناول هذا البحث تطور الخطاب الفكري في العراق خلال الايلخاني (٦٥٦-٧٣٦هـ/ ١٢٥٨-١٣٣٥م)، وتبين بالأدلة ان هذا العصر ليس كما يشاع عنه بانه كان يمثل فترة مظلمة وخالية من النتاج الفكري والعلمي ، بل بالعكس من من ذلك انه كان يمثل أزهى العصور من الناحيتين العلمية والفكرية .

وبين البحث ان الظروف التي أدت الى سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م تحت حكم المغول ونهاية مؤسسة الخلافة التي دامت لأكثر من ستة قرون ونصف وحدوث فراغ في الزعامة الدينية والروحية للعالم الاسلامي أدى الى بروز إتجاهات فكرية لم تكن تحظى بالقبول والاستحسان في العهود السابقة.

ومن العوامل التي أدت الى التأثير على الخطاب الفكري في العراق خلال هذا العصر هو ظهور طبقة إدارية من أبناء البلاد الاسلامية عملت في إدارة الدولة الايلخانية ، وكان لإرتباط مصالح هؤلاء بمصالح المغول أن ساهموا في صياغة خطاب فكري يتسم بالمرونة والمهادنة ويسوغ للحكام المغول أفعالهم وحكمهم للبلاد الاسلامية.

وكما بين البحث ان وجود الحكام الايلخانيين من غير المسلمين شجع على نهضة العلوم العقلية والفلسفية وتراجع بريق العلوم النقلية .

ويعد الغاء الاساس الديني للدولة وإعتبار الناس من كل الطوائف سواسية عاملاً آخراً في تحول الخطاب الفكري ، وذلك من خلال اتاحة الفرصة للعلماء وأرباب الفكر من أهل الذمة النصارى واليهود في المشاركة في الحياة الفكرية بكل نشاط وحيوية بعد أن رفعت عنهم القيود التي كانت تمنعهم من التعبير عن آرائهم وأفكارهم بكل حرية في العهود السابقة.

وكان لتأسيس النظام السياسي والاداري الايلخاني القائم على مبدأ التوافق بين قوانين الياسا الجنكيزخانية وبين أحكام الشريعة الاسلامية أن أوجد طبقة كبيرة من الكتاب وأرباب الفكر وأهل العلم من أبناء البلاد

الاسلامية ارتبطت مصالحهم الخاص بمصالح المغول أو بحكم رضوخهم لسياسة الأمر الواقع الى أن ينتهجوا خطاباً فكرياً سياسياً ودينياً جديداً قائم على تسويغ الحجج والدلائل التي تدل على شرعية الحكام المغول على الرغم من معظم هؤلاء كانوا على الديانة الوثنية .

وعندما تحول الحكام المغول الى دين الاسلام واعتباره ديناً رسمياً للدولة الايلخانية بداية من عهد السلطان محمود غازان سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م نجد ان الخطاب الفكري الذي بدأ بالتغير منذ بداية تأسيس النظام الجديد لم يحدث له تغييراً كبيراً فقد استمر إزدياد توجه العلماء نحو العلوم العقلية ، ولكن حدث تطور مهم في هذه الحقبة هو ان أهل العلم والفقهاء لم يعودا ينظرون للسلطان المغولي على انه غازي وثني يجب التصدي له ، وانما أصبح سلطاناً على ملة المسلمين يستحق الدعم والدعاء له.

Abstract :

This research deals with the evolution of the intellectual discourse in Iraq during the ILkhanid (656-7365 / 1258-1335). The evidence shows that this era is not, as it is known, a dark period and free from intellectual and scientific production . On the contrary, it was an advanced era of both scientific and intellectual and scientific production.

This research concluded that the circumstances that led to the fall of Baghdad the capital of the Abbasid Caliphate in 656 AH / 1258 CE under the rule of the Mongols and the end of the institution of the Caliphate, which lasted more than six and a half centuries and a vacuum in the religious and spiritual leadership of the Islamic world led to the emergence of intellectual trends were not acceptable in Previous covenants.

One of the factors that influenced the intellectual discourse in Iraq during this era was the emergence of an administrative class of the Islamic countrymen who worked in the administration of the Illegal State. The interests of these interests were associated with the interests of the Mongols. They contributed to the

formulation of a flexible and conciliatory intellectual discourse .

The research also found that the presence of non – Muslim ILkhanid rulers encouraged the renaissance of mental and philosophical sciences and the decline of traditional sciences .

المقدمة

يتناول هذا البحث تطور الخطاب الفكري في العراق خلال العهد الايلخاني وتحديداً بين السنوات (٦٥٦-٧٣٦هـ/ ١٢٥٨-١٣٣٥م) . ومن الدوافع للكتابة عن هذا الموضوع هو ان هذه الحقبة التي تعرضت فيها البلاد الاسلامية للغزو المغولي وشهدت أحداثها أقسى مامرت به طيلة تاريخها وصفت بكونها فترة مظلمة وخالية من الابداع والنتاج الفكري والعلمي ، وهذا حكم يجافي الحقيقة ، فمن خلال الدراسة والتحليل وتقصي الاحداث يجد أي باحث سواءاً كان مختصاً في الدراسات الايلخانية أو الدراسات المملوكية المعاصرة لها انه هذه الفترة تميزت بحركة فكرية واسعة ، ولكنها أخذت بالاضافة

الى ماكان سائداً من إتجاهات سمات فكرية جديدة لم تكن شائعة في العالم الاسلامي بشكل عام والعراق بشكل خاص طيلة القرون السابقة لتلك الحقبة، ولذلك جاء هذا البحث ليسلط الضوء على ماتركه أثر الغزو المغولي على معالم الحياة الفكرية وعلى الأخص رجال الفكر والعلم في هذا العصر.

ويمكن القول عن ثقة تامة ان هذا العصر كان في بعض جوانبه سواءاً كان في العراق أو البلاد الاسلامية الاخرى أرقى العصور فكراً وعلماً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع النصف الثاني من العالم الاسلامي الذي لم ينل منه الاحتلال المغولي ولم يطله الخراب والدمار ولأسيما في بلادي الشام ومصر اللتان كانتا تحكمان من قبل دولة المماليك ، حيث برز في هذا العصر الكثير من العلماء الذين نالوا شهرة واسعة ، ومما يؤكد ذلك ماورد من نصوص تاريخية تؤكد على ان الزعيم المغولي هولاكوخان أناط أمر خزائن الكتب في بغداد بعد سقوطها بموظفين من أهل العراق وهذا يدل دلالة واضحة على استمرار الحركة الفكرية في أوج نشاطها.

ولكن مع ذلك يمكن القول انه كان للظروف التي أملتها تلك الحقبة وفي مقدمتها سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية ونهاية الاسرة العباسية التي حكمت العالم الاسلامي لأكثر من خمسة قرون وفراغ البلاد الاسلامية لأول مرة منذ تأسيسها من الزعامة الروحية الدينية أن أدى دوراً في بروز إتجاهات فكرية لم تكن تحظى بنفس الاهتمام والقبول في الحقب السابقة لهذا العصر .

وفي نفس الوقت فإن هذا الحدث الذي أدى أيضاً الى نتائج على الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية قد ترك أثره الواضح على الحياة الفكرية والخطاب الفكري ، لأن من المتعارف عليه ان الجوانب الفكرية تتأثر بجوانب الحياة الاخرى، وعلى هذا الاساس يمكن تمييز ظهور إتجاهين فكريين في العالم الاسلامي خلال العهد الايلخاني ، الأول حاول إحتواء الغزو المغولي والتعامل معه ومسايرته من خلال الرضوخ لسياسة الأمر الواقع وكان مجال هذا التوجه على وجه التحديد في بلاد المشرق الاسلامي ومنها العراق ، وهو موضوع هذا البحث، والاتجاه الثاني كان على الضد من ذلك وقد مثله الخطاب الفكري في البلاد التي نجت من الغزو

المغولي ولأسيما في مصر وبلاد الشام والحجاز وبلاد المغرب وغيرها من البلاد الاسلامية التي استمرت فيها الاتجاهات الفكرية السابقة ، وهو خارج نطاق بحثنا هذا.

عوامل أثر الغزو المغولي على الحياة الفكرية

مما لاشك فيه ان الحملات العسكرية المغولية الواسعة على العالم الاسلامي والتي بدأت بشن الزعيم المغولي جنكيزخان (٦٠٣-٦٢٤هـ / ١٢٠٦-١٢٢٧م) الحرب على الدولة الخوارزمية وقضاءه عليها سنة ٦٢١هـ /١٢٢٤ م [١]. ومن ثم استمرار تلك الحملات العسكرية في عهد خلفاءه حتى تم تتويج جهودهم بإحتلالهم لمدينة بغداد سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م[٢]، وقيام الدولة الايلخانية بزعامة هولاكوخان (٦٥٦-٦٦٣هـ/ ١٢٥٨-١٢٦٥م) بدلاً من الحكم العباسي قد أحدث صدمة كبرى لم يشهدها العالم الاسلامي منذ نشأته ، ففضلاً عن ماأحدثته تلك الغزوات من دمار وتخريب لأمهات المدن الاسلامية كسمرقند[٣] وبخارى[٤] ، ومن ثم احتلال بغداد وقتل مئات

الالوف من السكان فقد كانت لها نتائج على مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولم يكن تأثيرها على الحياة الفكرية بأقل من ذلك إذ إنعكس ذلك بشكل مباشر عليها لأسباب عديدة وأخذ الخطاب الفكري منحى لم يكن سائداً من قبل، وكان في مقدمة تلك العوامل نهاية مؤسسة الخلافة العباسية وهو حدث جلل لم يحدث مثله من قبل طوال ستة قرون ونصف من عمر هذه المؤسسة الدينية التي نشأت بعد وفاة الرسول الأعظم محمد (ص) ، فعلى الرغم من ان الخلفاء كانوا في بعض الحقب السابقة يتعرضون للقتل أو الخلع ، ولكن كان كل ذلك يتم في ظل إستمرار مؤسسة الخلافة وليس بمعزل عنها، فعندما كان يتعرض خليفة للقتل أويتم خلعه يحل محله خليفة جديد في الغالب من الاسرة ذاتها، غير أن التطور الجديد الذي أسفر عنه الاجتياح المغولي لعاصمة الدولة العباسية بغداد لم يكن مجرد عبارة عن قتل للخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ /١٢٤٢-١٢٥٨م) آخر الخلفاء العباسيين واستصال شأفة الاسرة العباسية فحسب ، وانما نتج عنه وضع حد ونهاية لهذه المؤسسة الدينية ، لأن الحكام المغول الجدد الذين بسطوا سلطتهم

على معظم الجزء الشرقي من العالم الاسلامي لم يكونوا يدينون بدين الاسلام وانما كانوا يتبعون الديانات الوثنية كالشامانية والبوذية ، ولذلك لاتنطبق عليهم شروط الخلافة.

فضلاً عن ذلك ، إنهم كانوا في الأصل حكاماً يتمتعون بسلطات سياسية دنيوية بحتة ويقرون بالتبعية لأمبراطور المغول الأعظم (القاآن) المقيم في العاصمة الامبراطورية قراقورم ويحملون لقب (خان)(٥).

وطبقاً لذلك فإن الغزو الذي قام به الحكام المغول الوثنيون كان من الوجهة الدينية يختلف عن ماتعرضت له الخلافة من قبل من تسلط وفرض الارادة الاجنبية عليها مثل تسلط الدولة البويهية أو السلجوقية أو مثل المحاولة الفاشلة للسلطان الخوارزمي محمد خوارزمشاه غزو دار الخلافة أيام الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥—٦٢٢هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م) وجميع هذه المحاولات لفرض الارادة على الخلافة العباسية كانت قادمة من مايعرف ب (دار الاسلام) وقامت به قوى اسلامية ، ولذلك لم تترتب عليها أحكام شرعية أو فتاوى من

الفقهاء أو العلماء، بينما يعد الغزو المغولي وفق المفهوم الشرعي والفقهي الاسلامي كان وثنياً قادماً من (دار الحرب) مما يتطلب الوقوف بوجهه والتصدي له ، وعدم الاعتراف بشرعية الحكم الناتج عنه. وبناءاً على هذا المفهوم، لابد أن يظهر خطاب فكري جديد من العلماء والفقهاء وأهل الفكر يأخذ بنظر الاعتبار ظروف الوضع الجديد.

ومن العوامل الاخرى التي دعت لتأثر الخطاب الفكري في العهد الايلخاني هو ماعرف عن المغول الغزاة عدم خبرتهم بإمور الادارة والاستيفاء وأعمال الدولة المختلفة ، ولهذا اضطروا الى الاستعانة بالاكفاء والمختصين من أبناء البلاد الاسلامية في أدارة الدولة الايلخانية ، وكان من بينهم من رجال الفكر والعلماء الوزراء والحجاب والكتاب والموظفين الكبار الآخرين والمؤرخين والادباء ، وبحكم كون هؤلاء كانوا مستشارين أو موظفين في إدارة الدولة الناشئة ودواوينها فقد أخذوا على عاتقهم ، ولأسيما من كان يشتغل منهم في مجال الفكر والأدب الى جانب عمله في صياغة خطاب فكري يتسم

بالمرونة والمهادنة ويسوغ للحكام الجدد أفعالهم وحكمهم للبلاد الاسلامية.

وفي ظل الوضع الجديد فقد شجع وجود الحكام غير المسلمين على رأس دفة الحكم في المشرق الاسلامي الى ازدياد الاهتمام بالعلوم العقلية بدلاً من العلوم النقلية وهذا كان كفيلاً بانعاش الحياة الفكرية والخطاب الفكري في هذا العصر، ومما تؤكده المصادر هو عمل الحكام الايلخانيون أنفسهم على تشجيع هذه الاتجاه إذ كان لهم ولع شديد بالعلوم التطبيقية مثلما كان لهم إهتمام بشؤون السياسة ، وفي هذا الصدد ذكر ابن العبري (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) عن هولاكوخان مؤسس الدولة الايلخانية ((...ذا فهم ومعرفة يحب الحكماء والعلماء))[٦] . وأكد صاحب كتاب الحوادث الجامعة ذلك بقوله ((كان هذا السلطان يحب العلماء والفضلاء ويحسن اليهم ويجزل صلاتهم)) [٧].

وقد ذكر المؤرخ ابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) بهذا الخصوص ان هولاكو عين فلك الدين محمد بن ايدمر المستعصمي

شحنة على الحكماء الذين يلوذون بحضرته[٨] . ونقل القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) عن تشجيع الحكام الايلخانيين للعلوم العقلية بالقول ان من عادة المغول إسقاط المؤن والكلف عن أرباب العلوم على اختلافهم [٩]. ولاشك ان مثل هذه النصوص من مؤرخين معاصرين والتي تدل على رعاية الحكام المغول الايلخانيين للعلوم شجع على زيادة اهتمام الناس واقبالهم على الاشتغال بها كعلوم الفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والفلك والرياضيات وغيرها .

غير ان من المهم القول ان إزدياد الاتجاه نحو العلوم العقلية لايعني مطلقاً ان العلوم النقلية تراجع بريقها الى الحد الذي لم تعد فيه مؤثرة في الحياة الفكرية ، وانما إستمرت في الركود على حالها مثل ما كان في العهود السابقة و لم يحدث لها تطور يذكر ، كما لم تعد تمثل تياراً قوياً قادراً على إتهام من يعمل بالعلوم العقلية بالزندقة أوالخروج عن أحكام الشرع الاسلامي وماشابه ذلك.

ولاشك ان نشاط الحركة العلمية أتاح الحرية والمرونة للرقي الفكري فقد أتاح التغير الجديد المتمثل بقيام النظام الايلخاني المغولي

لأهل العلم والفكر اطلاق العنان للتصريح والقول بكل مايفكرون به دون قيود حتى ان صاحب الحوادث الجامعة الذي عاش في هذا العصر ذكر ان البعض من أهل الفكر تجاوز الحدود تعقيباً على قول البعض أشياء تنافي الشرع بقوله ((... ويقدم على مايجوز ذكره ...))[١٠] . ولاشك ان هذا النص يعطي دلالة قاطعة على ان الخطاب الفكري في هذا العصر بلغ درجة غير معهودة من قبل.

ويذكر أحد الباحثين المحدثين وهو محمد مفيد آل ياسين رأيه في هذا التحول في الخطاب الفكري بالقول ((وتركت هذه الحرية أثرها في التأليف وكتابة التأريخ ،(فكتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية)لابن الطقطقى ، وكتاب (تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب) لابن الفوطي ، وكتاب (كشف الغمة في معرفة الائمة) لبهاء الدين علي بن عيسى الاربلي ، هذه الكتب وغيرها، تدل بوضوح على الحرية الفكرية التي شهدها ذلك العصر ، والتسامح التي تميزت به تلك الفترة ، ولو كان هؤلاء المؤرخين في عهد بني العباس لما استطاعوا أن يحرروا أقلامهم هذا التحرير ، ولا أن يعربوا عن مرادهم هذا الأعراب))[١١] .

وكان من آثار هذا الاتجاه الفكري بروزعدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والذين أغنوا بأفكارهم وخطبهم الجديدة الحياة الفكرية في هذا العصر ، و كان من أبرزهم حسب ماورد عند الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) هو برهان محمد بن محمد النسفي (ت٦٨٧هـ / ١٢٨٨م) الذي وصفه ب(شيخ الفلسفة) [١٢]. وقد ذهب الصفدي (ت ٧٦٤هـ /١٣٦٢م) الى أبعد من ذلك بقوله عنه ((... المحقق المدقق العلامة الحكيم ، له التصانيف المشهورة ،كان في الخلاف والفلسفة أوحد))[١٣] . ووردت عنه أوصاف اخرى عند مؤرخين آخرين تدل على انه كان مشهوراً في الجدل والخلاف والكلام وهي أمور كانت تسبب المشاكل لمن يقوم بالتصريح بها في العصر العباسي [١٤].

ومن الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية والعقلية في هذا العصر جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي ابن المطهر الشهير ب العلامة الحلي (ن٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) الذي وصف بكونه ((علامة وقته وصاحب التدقيق والتحقيق))[١٥] ، وكان عالماً موسوعياً ، شارك في مختلف فروع المعرفة في عهده ، فلم يقتصر في نشاطه العلمي

على الفقه واصوله والتفسير والحديث وعلوم العربية والرجال والاخبار ترجيحاً ونقداً ، وانما تعدى ذلك الى التحقيق والتدقيق والتحليل والاستدلال[١٦] ، ولذلك يمكن أحد العلماء البارزين والذي ساهم بقوة في تطوير الحياة الفكرية والخطاب الفكري في العهد الايلخاني سواءاً في عهود الحكام المغول الوثنيين أو في الحقبة الاخيرة التي تم في إعلان الاسلام ديناً رسمياً للدولة الايلخانية.

وتبين لنا المصادران إلغاء الأساس الديني للدولة وإعتبار الناس من كل الطوائف سواسية في هذا العصر عاملاً آخراً مؤثراً في تغير الخطاب الفكري في هذه الحقبة ، حيث ذكر المؤرخ المعاصر ابن العبري ((ان المغول ... لافرق عندهم بين العبد والحر والمؤمن والكافر والمسيحي واليهودي ، فهم يسوسونهم بصولجان واحد ، واذا اختلف اليهم أحد وقدم شيئاً من المال التقفوه منه وعززوه ولبوا طلبه مهما كان ، وهم يطلبون خدمة متواصلة وخضوعاً وانقياداً تاماً))[١٧].

واكد هذه الحقيقة عن الحكام المغول الجدد المؤرخ القلقشندي بقوله ((...لايتعصبون لمذهب ، ولايتحزبون لطائفة معينة أو دين خاص فمنهم من دان بالنصرانية ومنهم من تقرب بالأصنام ، ومنهم من أطرح الجميع))[١٨] . وبدون أدنى شك يفهم من النصوص السابقة ان هذا الوضع قد دفع بشدة العلماء وأهل الفكرمن أهل الذمة من اليهود والنصارى في المشاركة بنشاط وحيوية في الحركة الفكرية والتعبير عن آرائهم بحرية تامة على عكس ماكانوا عليه في السابق حيث كانت طبيعة الدولة الدينية تفرض عليهم بعض القيود والتحفظ في التعبير عن بعض الآراء التي لا تنسجم وطبيعة وضعهم في المجتمع آنذاك.

ومن الامثلة على نشاط النصارى في ميدان الفكر في هذا العصر نذكر منهم غرس الدولة أبو نصر بن مسعود بن القس البغدادي (كان حياً سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨١م) [١٩]. وعيسى بن القسيس البغدادي الحظيري (كان حياً سنة ١٢٨٥هـ/١٢٨٦م) الذي وصف بعلو الهمة في نشاطه العلمي[٢٠] . وكذلك المؤرخ ابن العبري صاحب كتاب (تاريخ مختصر الدول) ، وفخر الدين عيسى بن صفي

الدولة سليمان المعروف بأبن الجمل البغدادي النسطوري الذي ذكر ابن الفوطي انه كان معاصراً له [٢١].

وأما من اليهود فقد كان أشهر من اشتغل بميدان الفكر وأحدث تحولاً في الخطاب الفكري في هذا العصر هو عزالدولة سعد بن منصور بن سعد المعروف بابن كمونة (ت٦٨٣هـ/١٢٨٤م) الذي ذكر عنه ابن الفوطي ((كان عالماً بالقواعد الحكمية والقوانين المنطقية ، مبرزاً في فنون الآداب وعيون النكت الرياضية والحساب...قصده الناس للاقتباس من فوائده))[٢٢] . وقد ألف ابن كمونة كتاب (تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث) وهو كتاب تناول فيه الأديان السماوية الثلاث الاسلام والنصرانية واليهودية ، وقد ساق فيه إصول تلك الاديان ومايعتقده اصحابها فيها من خلال ماتوفر لديهم من أدلة ، ولكنه قام بذكر الانتقادات والطعون على تلك الأديان ، مما أثار عليه الناس بعد أن شاع بينهم انه له آراء تمس العقيدة الاسلامية وحاولوا قتله فهرب الى مدينة الحلة متخفياً [٢٣].

ولم يقتصر رد الفعل على كتاب (تنقيح الابحاث في الملل الثلاث) الذي ألفه أبن كمونة على عامة الناس فقط ، وانما أثار أيضاً ردود أفعال عدد من أهل الفكر والعلماء حيث أدى ماورد في هذا الكتاب من أفكار غير مسبوقة الى إثارة الجدل والنقاش بشكل واسع ، ولذلك تصدى له البعض والرد عليه بمؤلفات تطعن في ماورد فيه من أفكار، ومما يرد في هذا الشأن ان مظفر الدين أحمد بن علي المعروف بالساعاتي (ت٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م) ألف كتاباً سماه (الدرالمنضود في الرد على فيلسوف اليهود) ، وقد أورد فيه الحجج والدلائل التي تفند آراء ابن كمونة التي ذكرها في كتابه [٢٤].

ومن الجدير بالذكر ان ردود الفعل لم تقف عند حدود العلماء الذين عاصروه ، وانما كانت هناك طعون وردود صبت جام غضبها عليه حتى بعد عقود من وفاته ، فقد ألف زين الدين سريجا بن محمد الملطي الماردِيني (ت٧٨٨هـ/ ١٣٨٥م) كتاباً سماه (نهوض حثيث اليهود الى خوض خبيث اليهود) [٢٥]، ولاشك ان هذا الجدل والتناظر حول ماورد في هذا الكتاب من آراء يعطى دلالة

واضحة على نشاط وحيوية الحياة الفكرية في العهد الايلخاني ، وبروز توجه جديد في الخطاب الفكري لم يكن معروفاً من قبل .

وفضلاً عن ابن كمونة ، فقد ساهم عدد ليس بقليل من اليهود الآخرين في الحياة الفكرية ومنهم العالم السيكري الكرخي الذي ذكر ابن الفوطي انه كان معاصراً له ووصفه بانه ((كان عالماً يقتني الكتب الأدبية والحكمية)) [٢٦].

السمات العامة للخطاب الفكري السياسي في العهد الايلخاني

كان لقيام الحكم الايلخاني وتأسيس نظام سياسي وإداري يقوم على أساس التوافق بين قوانين الياسا [٢٧] الجنكيزخانية وبين أحكام الشريعة الاسلامية أن أدى الى وجود طبقة من أصحاب المناصب العليا مثل الوزراء وأصحاب الديوان المسلمين عملوا في أعلى مناصب النظام السياسي والاداري الايلخاني ، وقد تطلبت المصالح الخاصة لهؤلاء المسؤولين لكونهم كانوا من الحاشيات الخاصة للخانات أو ألامراء أن ينتهجوا خطاباً فكرياً سياسياً ودينياً جديداً قائم على تسويغ وإيراد الحجج والدلائل على شرعية الحكام المغول على الرغم من معظم هؤلاء كانوا على الديانة الوثنية .

ومن أمثلة ذلك التحول الفكري هوإمتناع الخطباء عن الدعاء للخليفة من على المنابر على خلاف ماكان يحدث في العهود السابقة ، على الرغم من قيام دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر بيبرس(٦٥٨-٦٧٥هـ /١٢٦٠-١٢٧٧م) بإحياء الخلافة العباسية

في القاهرة سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م ، والتي ظلت مستمرة حتى نهاية حكم المماليك [٢٨].

كما لم يعد أهل الفكر وأصحاب المصنفات يشيرون في ديباجة مؤلفاتهم الى الخلافة القائمة بالقاهرة ، وبل على العكس كانوا في بعض الاحيان يذكرون (سلطان العصرالمغولي) بالمديح والتمجيد والتأكيد على رعاية الله له في فتوحاته وأعماله ، و من ثم الدعاء له بدوام حكمه ومملكته ، كما إنهم كانوا يفضلون إسباغ لقب (السلطان) عليه بدلاً من اللقب المغولي الرسمي الذي كان يحمله وهو خان أو إيلخان[٢٩] .

في حين لجأ بعض الاداريين وأهل الفكر في الاشارة في ديباجة كتاباتهم ومنشوراتهم عبارات التسويغ والتبريرلقيام الحكم المغولي ، والبعض الآخر منهم كان يستعين بآيات من القرآن الكريم في خطبه أو مؤلفاته ليبرهن ان ماوقع على بلاد المسلمين هو من قضاء الله وقدره مثل ((وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا

منكم شهداء والله لايحب الظالمين)) [٣٠]، والواضح من أيراد ذلك هو لتسويغ ان ماحدث هو أمر محتم من الله سبحانه وتعالى [٣١].

وماهو جديد بالذكر ان الاتجاه الفكري الصوفي الذي كان قوياً في العهود العباسية المتأخرة قد حظي بعناية واهتمام خاصين من لدن السلطة الايلخانية ، ويعتقد الباحث المحدث محمد مفيد آل ياسين تعقيباً على قول القلقشندي ((...هذا ما حملهم (المغول) على إسقاط المؤن والكلف غن الفقراء والزهاد ومن جرى هذا المجرى ...))[٣٢]، ان سبب ذلك ان المغول لابد ان يكونوا قد أدركوا ان هذا الاتجاه ، الذي يقوم على اقناع الناس بالتسليم والرضا والزهد بالدنيا والاستسلام للقدر ، مما يساعد كثيراً على خضوع الناس للسلطة ، وامتثالهم لأوامرها ، وهو ماكانوا يبغونه آنذاك[٣٣] .

وفي سبيل تشجيع هذا التوجه قام حكام العهد الايلخاني المغول ونوابهم برعاية المتصوفة والزوايا والربط الخاصة التي كانت موجودة في العصر العباسي السابق ، وكما قاموا بإشاء زوايا جديدة ، ومن ذلك ماأورده ابن الفوطي عند حديثه عن حوادث سنة من ان

مجدالدين محمد بن علي المعروف بابن الاثير القصري (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) نائب حاكم العراق علاالدين عطا ملك الجويني(ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) أنشأ الرباط المجدي ببغداد وجعل فيه خزانة كتب [٣٤].

وذكر صاحب الحوادث الجامعة عند حديثه عن حوادث سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م ان زوجة حاكم العراق علاء الدين عطا ملك الجويني أنشأت رباطاً للصوفية . كما ان جمال الدين الدستجرداني الذي تولى منصب صاحب الديوان ببغداد ثلاث مرات في أوقات مختلفة أقام في ولايته الاخيرة سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م زاوية في محلة الدينارية ببغداد [٣٥].

وعلى اية حال ، ان إزدياد النشاط الصوفي في هذا العصر قد رفد الحركة الفكرية بالكثير من المصنفات الصوفية ذات السمات الفلسفية والعقلية ، و على سبيل المثال ما أورده المؤرخ ابن الفوطي الذي ذكر في إحدى تراجمه ان مقرب الدين أحمد بن أرسلان الهمذاني الصوفي (كان حياً سنة ٦٦٦هـ /١٢٦٨م) ألف كتاب اسمه (عوارف المعارف) في سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م وهو كتاب يتناول

التأملات والحكم الروحية الصوفية برؤية فلسفية عقلية لم تكن شائعة في العصر العباسي السابق[٣٦] .

الخطاب الفكري في العهد الايلخانات المسلمين

كان لوصول السلطان محمود غازان (٧٠٣.٦٩٤هـ/ - ١٣٠٤١٢٩٥م) على عرش الدولة الايلخانية بعد أن تخلى عن الديانة البوذية وأعتناقه للاسلام وإعلانه ديناً رسمياً للدولة الايلخانية [٣٧] تحولاً حاسماً في تاريخ الدولة الايلخانية إذ عد عصراً مختلفاً عن سابقه بروحه وسماته ، حتى ان المستشرق رين غروسيه (Rene Grouset) وصف هذا الحدث الحاسم بالقول ((ان حكم غازان قد حدد اللحظة التي تحول فيها هولاء البدو البدائيون شيئاً فشيئاً الى الحياة المستقرة ... فبعد أن اعتنقوا الاسلام، فإنهم مالبثوا أن فقدوا هويتهم ، وفقدو معها مميزاتهم ، وتركوا أنفسهم للوسط الذي هضمهم وشربهم وأخفاهم)) [٣٨]. ولذلك كان لأعلان الاسلام ديناً رسمياً للدولة الايلخانية أن ظهرت المسحة الاسلامية على معظم مرافقها ،

واستمر الوضع على حاله في عهدي خليفتيه محمد خدابنده (أولجايتو) (٧٠٣- ٧١٧هـ /١٣٠٤-١٣١٧م) والسلطان الايلخاني الأخير أبي سعيد (٧١٧-٧٣٥/ ١٣١٧- ١٣٣٦م) [٣٩].

ومن المؤكد ان هذا التحول إنعكس بتأثيراته على مختلف جوانب الحياة ، ولكن مايمكن ملاحظته إن الخطاب الفكري الذي بدأ بالانفتاح والتطور والخروج من حالة الركود في بداية تأسيس الدولة الايلخانية لم يتأثر بشكل عام كثيراً سوى فيما يخص ان معظم رجال الفكر وأهل العلم المسلمين لم يعودوا ينظرون بنفس نظرة بداية هذا العصر للخان المغولي بإعتباره حاكماً وثنياً غازياً وقادماً من (دار الحرب) ، يجب الوقوف بوجهه والتصدي له ، وانما أصبح في نظرهم بعد تحوله الديني سلطاناً على ملة المسلمين يجب طاعته والوقوف خلفه والدعاء له من على المنابر.

وماعدا ذلك فإن النصوص المتوفرة في المصادر تؤكد على استمرار النشاط العقلي في الحياة الفكرية ، فقد ذكر لنا المؤرخ ابن الفوطي تراجم لكثير من ارباب الفكر ومنهم ابن الصباغ (ت٧١٥هـ/

١٣١٥م) الذي وصفه بانه ((كان حكيماً فاضلاً كاملاً))[٤٠] ، كما ذكر كلا من كمال الدين داود الحصفكي وبجيرالدين محمد بن عثمان المعروف بابن كاس الاسعردي واللذان كان معاصران له [٤١].

الهوامش :

(١) عن حملات المغول العسكرية على الدولة الخوارزمية ، انظر: عزالدين محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير(ت٦٣١هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ ، (بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٨م)، جـ٩، ص٣٨٩؛ محمد بن محمد النسوي(٦٣٩هـ/١٢٤١م)، سيرة السلطان جلال الدين منكوبرتي، تحقيق حافظ حمدي ، (القاهرة : مطبعة الارشاد، ١٩٥٣) ، ص٨٧-٨٩. علاء الدين عطا ملك الجويني (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، تاريخ جهانكشاي ، ترجمة محمد التونجي ، (دمشق : دار الملاح للطباعة والنشر ، ١٩٨٥) ، جـ١ ، ص١٨١-٣١٥.

(٢) عن حملة هولاكوخان على مشرق العالم الاسلامي والخلافة العباسية ، انظر: أبو عمرو منهاج الدين الجوزجاني (٦٦٠هـ/ ١٣٦٢م) ، طبقات ناصري ،(كابل ، ١٣٤٣ هـ/ ١٩٦٥) ، ص١٨١-١٨٩ ؛ رشيدالدين فضل الله بن عماد الدولة الهمداني (ت٧١٨هـ/ جامع التواريخ ، (طهران : شركة نسبي حاج وشركائه ، ١٣٨٨هـ . ش)،جـ٢ ، ص ٦٩٦-٧١٤.

(٣) سمرقند : بلد مشهور في بلاد ماوراء النهر . للتفصيل انظر : ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) ، معجم البلدان ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٠)، جـ٣ ، ٢٤٦.

(٤) بخارى : وهي من أعظم مدن ماوراء النهر. للتفصيل انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٢، ص٣٥٣.

(٥) لقب خان : وهو لقب اطلق على الامراء من قبائل الترك منذ القرن الاول والثاني الهجريين الموفق السابع والثامن الميلاديين ، ومعناه الرئيس ، وقد اطلق هذا اللقب فيما بعد على الولاة من المغول الذين كانوا يتبعون بالولاء الى سيد الاسرة الأعظم (القاآن) المقيم في عاصمة لامبراطورية المغولية ، انظر: محمد التونجي ، المعجم الذهبي ،(بيروت : دار العلم للملايين ،١٩٦٩) ، ص٢٣٢.

(٦) غريغورس الملطي ابن العبري (ت٦٨٥هـ /١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول ، (بيروت : لمطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٨) ، ص٢٨٤.

(٧) مجهول ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في أعيان المائة السابعة ، تحقيق: مصطفى جواد ، (بغداد : المكتبة العربية ، ١٣٥١هـ).

(٨) كمال الدين عبدالرزاق بن الفوطي (ت٧٢٣هـ /١٣٢٣م) ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، تحقيق مصطفى جواد ، (حيدر آباد : ١٩٤٠) ،جـ٤، ق٣ ، ص٥١٣.

(٩) أحمد بن علي القلقشندي(٨٢١هـ /١٤١٨م) ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧) ، ج٤ ، ص٣١١.

(١٠) مجهول ، الحوادث الجامعة ، ص٣٤٣.

(١١) الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، ١٩٧٥ ، ص١١٧-١١٨ .

(١٢) شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ / ١٢٤٧م) ، دول الاسلام ، حيدر آباد ، ١٣٦٤هـ) ، جـ٢ ، ص١٤٣.

(١٣) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي(ت٧٦٤هـ/ ١٢٦٢م) ، الوافي بالوفيات ، (فيسبادن ، ١٩٦٢) ، جـ١ ، ص٢٨٢-٢٨٣.

(١٤) عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ،(بيروت : منشورات مؤسسة الأعلمي ، ١٩٧٠) ،جـ٤، ص٢٠٠.

(١٥) تقي الدين الحسن بن علي ابن داود (ت٧٤٠هـ /١٣٣٩م) ، كتاب الرجال ، بإعتناء جلال الدين الحسيني ، (طهران ، ١٣٨٣هـ)، ص١٣٦.

(١٦) محمد مفيد آل ياسين ، الحركة الفكرية ، ص١٣٨- ١٣٩.

(١٧) ابن العبري ، تاريخ الدول السرياني ، نشر مجلة المشرق البيروتية / ١٩٥٠، ص٣٩٨-٣٩٩.

(١٨) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص٣١٢.

(١٩) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٣ -٢٧٤.

(٢٠) م . ن . ص ٢٧٣- ٢٧٤.

(٢١) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ، جـ ٤ ، ق ٣ ، ص٢٧٤.

(٢٢) م . ن ، جـ٤، ق١،ص١٥٩-١٦١.

(٢٣) مجهول ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٤١-٣٤٢.

(٢٤) مصطفى بن عبدالله المعروف بكاتب جلبي حاجي خليفه ، كشف الظنون عن أسامي لكتب والفنون ، (استانبول ، ١٩٤٣) ، جـ١ ، ص٧٣٤.

(٢٥) م . ن ، جـ ١ ، ص٤٩٥.

(٢٦) تلخيص مجمع الآداب ، جـ٤، ق١، ص٥٠٩-٥١٠.

(٢٧) الياسا : مصطلح مغولي – تركي يعني حكم أو قاعدة أو قانون ، وتذكر في المصادر الاسلامية بألفاظ مختلفة مثل (ياسه ، يساق ، يسق) وأحياناً ترخم الكلمة فتذكر (الياصا، الياصاي)، وهي مجموعة الأحكام التي أقرها جنكيزخان ، وقد استنبط الجزء الأكبر منها من عادات وتقاليد المغول ، وأضاف عليها أحكاماً استحدثها هو بنفسه ، وأصبحت بمثابة الدستور الذي ينظم حياة القبائل المغولية مجتمعة . عن التفصيل عن أحكام الياسا ، انظر :

الجويني ، تاريخ جهانكشاي ، جـ١ ، ص١٦-٢٥.

(٢٨) الدوادار ، ركن الدين بيبرس (ت٧٢٥هـ /١٣٢٥م) ، زبدة الفكرفي تاريخ الهجرة ، تحقيق دونالد.س.ريتشاردز ،(بيروت : الشركة المتحدة ، ١٩٩٨) ، ص٧٨.

(٢٩) القزويني، حمد الله المستوفي (ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) ، تاريخ كزيدة ، باهتمام عبد الحسين نوائي ، (طهران ، ١٣٣٦ هـ.ش) ، ص٥٧٨.

(٣٠) سورة آل عمران ، الآية ، ١٤٠.

(٣١) محمد صالح داود القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، (النجف ، مطبعة القضاء ، ١٩٧٠) ، ص٢٨١.

(٣٢) صبح الأعشى ، جـ٤، ص٣١١.

(٣٣) محمد مفيد آل ياسين ، الحياة الفكرية ، ص١٥٨.

(٣٤) تلخيص مجمع الآداب ، جـ٥ ، ص٢٤٠.

(٣٥) مجهول ، الحوادث الجامعة ، ص٣٧٣.

(٣٦) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ، جـ٥ ، ص٧٣٠.

(٣٧) الهمداني ، داستان غازان ، تحقيق كارل يان ، (لندن ، ١٩٤٠) ، ص٧٦؛ حمد الله المستوفي القزويني (ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) ، تاريخ كزيده ، ص٦٠٤؛ حميدالدين محمد بن خداونشاه ميرخوند (ت٩٠٣هـ/ ١٤٩٨م)، تاريخ روضة الصفا في سير الانبياء والملوك والخلفا ، (طهران : جاب بيروز ، ١٣٣٩هـ.ش)، جـ٥،صص٣٦٠.

(38) L'Empire des Steppes,(Paris,1952), p457.

(٣٩) حافظ عبدالله بن لطف الله بن عبدالرشيد الخوافي ابرو(ت٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) ، ذيل جامع التواريخ ، (طهران : شركة تضامن علمي ، ١٣١٧هـ.ش).

(٤٠) تلخيص مجمع الآداب ، جـ٥، ص١٧٢.

(٤١) م . ن ، ص١٧٤ ، ص٣٠٧.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً : المصادر

القرآن الكريم .

١- أبن الأثير ، عزالدين محمد (ت٦٣١هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ ، (بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٨).

٢- الجويني ،علاء الدين عطا ملك (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، تاريخ جهانكشاي ، ترجمة محمد التونجي ، (دمشق : دار الملاح للطباعة والنشر ، ١٩٨٥)

٣- حاجي خليفه ،مصطفى بن عبدالله المعروف بكاتب جلبي ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، (استانبول ، ١٩٤٣).

٤- حافظ ابرو، عبدالله بن لطف الله بن عبدالرشيد الخوافي (ت٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) ، ذيل جامع التواريخ ، (طهران : شركة تضامن علمي ، ١٣١٧هـ.ش).

٥- ابن داود ،تقي الدين الحسن بن علي (ت٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م(، كتاب الرجال ، بإعتناء جلال الدين الحسيني ، (طهران ، ١٣٨٣هـ)

٦- ركن الدين بيبرس الدوادار (ت٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) ، زبدة الفكرفي تاريخ الهجرة ، تحقيق دونالد.س.ريتشاردز ،(بيروت : الشركة المتحدة ، ١٩٩٨) .

٧- شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ / ١٢٤٧م) ، دول الاسلام ، (حيدر آباد ، ١٣٦٤هـ) .

٨- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٢٦٢م) ، الوافي بالوفيات ، (فيسبادن ، ١٩٦٢).

٩- غريغورس الملطي ابن العبري (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) ، تاريخ مختصر الدول ، بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٨).

١٠- أحمد بن علي القلقشندي(٨٢١هـ/ ١٤١٨م ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧).

١١- مجهول ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في أعيان المائة السابعة ، تحقيق: مصطفى جواد ، (بغداد : المكتبة العربية ، ١٣٥١هـ).

١٢- حمد الله المستوفي القزويني (ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) ، تاريخ كزيدة ، باهتمام عبدالحسين نوائي ، (طهران ، ١٣٣٦ هـ.ش).

١٣- ميرخوند ، حميدالدين محمد بن خداونشاه (ت٩٠٣هـ/ ١٤٩٨م)، تاريخ روضة الصفا

في سير الانبياء والملوك والخلفا ، (طهران : جاب بيروز ، ١٣٣٩هـ.ش).

١٤- الهمداني ، رشيدالدين فضل الله بن عماد الدولة (ت٧١٨هـ / ١٣١٨م)، جامع التواريخ ، (طهران : شركة نسبي حاج وشركائه ، ١٣٨٨هـ . ش).

١٥- ---------- ، داستان غازان ، تحقيق كارل يان ، (لندن ، ١٩٤٠).

١٦- اليافعي ، عبدالله بن أسعد بن علي (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ،(بيروت : منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٠).

١٧- ياقوت الحموي ، شهاب الدين (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩)، معجم البلدان ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٠).

المراجع الحديثة

١٨- آل ياسين ، محمد مفيد ، الحركة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة بغداد ، ١٩٧٥).

١٩- التونجي ، محمد ، المعجم الذهبي ،(بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٩) .

٢٠- القزاز ، محمد صالح داود ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، (النجف : مطبعة القضاء ، ١٩٧٠).

(21)Grousset.Rene ,L'Empire des Steppes ,(Paris , 1952) , p457.